المقـــــاومـــــــة بالـنـاس ولـلـنـاس

إصلاح جاد

لماذا توقّعتُ الحرب؟

قـرأتُ الحـربَ على لبنان في ٢٠٠٦/٧/١٢ بالاسـتناد إلى معرفتي السابقة بالعقلية الصهيونية، التي تقوم على قناعةٍ راسخةٍ بأنّ «العربي لا يَعْرف إلا لغةَ القوة،» وأنّ العربي «يزداد توهُّجًا كلّما ضُربَ على رأسه،» وأنّ «ما لا تستطيع أن تَحْصل عليه بالقوة ستَحْصل عليه بمزيدٍ من القوة.» هذه الأقوال الفاضحة في عنصريتها تجعل المرءَ يدرك أنّ ما حقّقتْه المقاومةُ اللبنانيةُ الباسلة بقيادة حزب الله في عام ٢٠٠٠ قد خَطَّ سابقةً خطيرةً على حياة دولة إسرائيل في المنطقة، كان من الصعب أن تمرّ دون «عقاب» سريع لئلاّ تنتقلَ «عَدْواه» إلى بقية شعوب المنطقة المقهورة ـ بحكّامها، داخليّاً، وبالغطرسة والإذلال المستمرّ من قِبل إسرائيل وحليفتها أميركا، خارجيّاً

توقّعتُ الحربَ أيضًا كلّما كنتُ أرى أولادي وأصدقائي وجيراني يتسمّرون أمام التلفاز عندما يُلقي سماحةُ السيد حسن نصر الله خطابًا يتابعونه بتلهُّف وشغف. كنتُ أسأل دائمًا عمّ يَجْذب كلَّ هؤلاء، من صغار وكبار، إلى ما يقول. ثم رجعتُ بالذاكرة إلى أكثر من ثلاثة عقودٍ خَلَتْ عندما كنتُ أستمعُ في طفولتي وصباي إلى خطابات جمال عبد الناصر، وكيف كانت كلماتُه الواضحةُ البسيطةُ المفعَمةُ بروح العزّة والكرامة والإباء تهزُّ مشاعري وتُوقِظُ وعيي على ما يَحْدث حولي ـ سواء في مصر أو في بقية العالم العربي والعالم النامي بشكلٍ عامّ. هكذا يتسمّر الجميعُ اليوم لأنّهم يَستمعون إلى قائدٍ عربيٍّ جديد، يَشْعر بشعور شعبه، ويعيد إليهم مرةً أخرى روحًا عمل العديدُ من الأنظمة العربية (وزبانيتِها من محطّات الإعلام المختلفة) على إخمادِها لكي تَبثّ روحَ اليأس والهزيمة في النفوس

لهذه الأسباب كلّها توقّعتُ الحرب. كيف لا وإسرائيلُ وأميركا تَعْملان بلا كللٍ ولا ملل على «صناعة النُّخب» السياسية التي تَحْكمنا، وعلى صناعة النخب التي تفكّر وتَخْلق رأيًا عامّاً من المثقفين والأدباء والفنّانين والصحفيين؟ فكيف بعد هذا الجهد المبذول لتطويع كلِّ عنصر يُمْكن أن يساعد على التغيير في المنطقة، كيف يُسمح لقياديٍّ من نمط نصر الله بالاستحواذ على قلوبِ وعقولِ اللبنانيين بل العرب والمسلمين أيضًا؟!

المقاومة: جديدُها وعظمتُها

أما المقاومة اللبنانية فجديدُها أنّها تقوم على دورٍ واضح لا يَقْبل التأويلَ بأهمية الناس العاديين، وكيف أنهم قادرون فعلاً على صنع المستحيل بالاستناد إلى وعيهم وقدراتهم وتنظيمهم وقيادتهم الخلاّقة التي هي جزءٌ لا يتجزّأ منهم. إلاّ أنّ هؤلاء الناس كلّما ضَحّوا أكثرَ وأعطوْا أكثر، تعالى صراخُ مَنْ لا يضحّي ولا يعطي بأنّ المقاومة تَجْلب الدمار وهي بالطبع تَجْلب الدمار... ولكنْ على مصالح هؤلاء الصارخين، وعلى نمط عيشهم المُتْرف الذي تأسّسَ على استعبادِ الغالبية التي اعتقدوا أنّها صامتة! غير أنّ عظمةَ المقاومة اللبنانية لا يتجلّى فقط في إيمان قادتها العميق بالناس العاديين ومدى أصالتهم ومدى قدرتهم الواعية على العطاء، بل يتجلّى أيضًا في احترام قادة المقاومة وتقديرهم لذلك العطاء، وفي العمل على تعزيز حسِّ الكرامة والإباء لدى أولئك الناس. ومن هنا كان السلوكُ السريعُ من قِبل قادة حزب اللّه في إجلالهم، ومنعِهم من الانتظار، أو منعِهم من طلب المساعدة لمحو آثار العدوان والدمار، وتمكينهم من العيش سريعًا بعزّة وأنفة.

إزاء كلّ هذا المشهد الجديد العزيز، وبعد قضاء الأيام الأولى من الحرب وأنا أتابع أحداثَها عبر أجهزة الأعلام المختلفة، وبعد أنْ حمدتُ اللّه على وجود قناة إعلامية واحدة (فقط واحدة) ارتقتْ إلى مستوى الحدث ومستوى ما يَعْتمل في صدور الناس من أمثالي، وبعد أن حمدتُ اللّه مجددًا على هذه القناة ـ قناة المنار ـ التي استمرت في نقلِ صوت الناس العاديين سواء على خطوط النار أو في الخطوط الخلفية يقاومون دون خوف ولا هوان بعد ذلك كلّه رأيتُ أنّ أفضلَ سبيلٍ لدعم هذا المشهد العظيم هو أن أفعلَ شيئًا، أن أَخْرجَ إلى الشارع، أن آخذَ أطفالي، أصدقائي، جيراني وكلَّ من أعرف، للتظاهر. استخدمتُ الهاتف، والبريدَ الإلكتروني، والرسائلَ الهاتفيةَ لتعميم مواعيد كافة الأنشطة والمظاهرات المقترحة من كافة الفصائل الوطنية والإسلامية، ولدعوة الجميع إلى الخروج معًا وأمام بعض التعليقات القليلة والسخيفة (من قبيل «كيف تسيرين وراء قيادة طائفية دينية وأنتِ النسويةُ العلمانيةُ اليسارية؟!»)، قررتُ أن أخرج للتظاهر وأنا أحمل صورةَ أول قائدٍ عربي جاء من الشعب ولم ينفصلْ عنه أبدًا لا بقصور ولا بألقاب. لا بل قرّرتُ أيضًا أن أحمل علمَ مقاومته، مقاومتي، مقاومتنا.

غابرييلا بوليسوتا

الحدود مع فلسطين عند مارون الراس

إذنْ، التظاهر، وإظهارُ موقفٍ واضح لا لبسٌ فيه ولا «فذلكاتٌ» فكرية أو لغةٌ رمادية أو بحثٌ عن ذكورية الميلشيات وسحرها (وكأنّ جولدا مائير ومارجريت ثاتشر لم تكونا من النساء!) كلّ ذلك كان ردةَ فعلي على ما يحدث لقد رأيتُ أنّ أَخْذَ هذا الموقف الواضح والصريح مهمٌّ في زمنٍ تعولَم فيه بعضُ المثقفين، وأصبح بعضٌ آخر معبِّرًا عن النخبِ القليلة التي تَحْكم بالسياسة والاقتصاد والقلم لتتركَ الغالبيةَ العظمى من الناس «لحال سبيلها.» ولكنّ هذه الغالبيةَ لم تُتركْ لحال سبيلها، بل نهضتْ، لتَكْشفَ عمّن يعبِّر فعلاً عن مصالحها ويرقى إلى مستوى تضحياتها من جهة، وعمّن يختار مصالحَه وفتاتَ ما يرميه إليه سادةُ العولمة من جهة ثانية. يجب ألاّ ننخدع بعد الآن بأنّ «العلماني الحقّ لا يسير خلفَ أحزابٍ أو شعاراتٍ دينية» ـ وكأنّ العلمانية «الحقّة» لا مكانَ فيها للقيم الدينية والحال أنّ تقاعُسَ البعض، بحجّة الليبرالية أو العلمانية أو غيرهما، عن أخذ موقف واضح مما يَحْدث سيَجْعل مِنْ هؤلاء الخاسرَ الأعظمَ مِنَ العدوان الأخيرِ فمَنْ قال إنّ الليبرالية والعلمانية في بدايتها الأولى لم تخوضا معاركَ وثوراتٍ؟ إنّ الليبراليين والعلمانيين العرب الذين تخاذلوا عن دعم كافة أشكال المقاومة إنّما بذلك يَضْعون أنفسَهم، شاءوا أم أبَوْا، في معسكر المعتدي المغتصِب، إذ لم توجد دولةٌ واحدةٌ في العالم حصلتْ على حريتها و«تنويرها» دون ثورات وعنف وتضحيات ومقاومة.

الحفاظ على الإنجاز

والآن، كيف يمكن المحافظةُ على هذا الإنجاز العظيم؟ كيف نَضْمن أن يكون صوتُ الناس العاديين هو المسيطِرَ، فلا يسيطِرُ عليه مَنْ لا يُضحّون ولا يشاركون؟ هنا أرى أنّ ترسيخ المقاومة بالناس هو الأساس إنّ أيَّ فعلٍ يقوم به الناسُ العاديون، شرطَ أن ينبني على النظام والاستمرارية، أمرٌ هامّ ولتكنْ بؤرةُ العدوان هي نقطةَ الانطلاق التي بإمكانها إن تَجْذب الآلافَ من كلّ بقاع الأرض، للتطوع في مخيّمات عمل من أجل المشاركة في الإعمار، وللالتقاء مباشرةً مع من تحدَّوا وصَمَدوا وانتصروا لكرامتهم. فإذا خرجت المظاهراتُ أثناء هذا العدوان بالآلاف، فيجب أن تخرج في المرات القادمة بمئات الآلاف. ولكنّ هذا يستدعي العملَ من الآن مع كافة الأطر الشعبية، وعلى كلّ مستويات التواصل بين الأطفال والنساء والطلاب والعمال والفلاحين والموظفين والإعلاميين والنقابيين وغيرهم الكثير من قطاعات الشعوب العربية الشريفة. فبالاعتماد على الناس، وبالناس، تنتصر المقاومةُ في كلّ مكان

فلسطين

د. إصلاح جاد

أستاذة في معهد دراسات المرأة، دائرة الدراسات الثقافية، جامعة بيرزيت، فلسطين